

# المعمار عندما يتحول إلى أداة سياسية استعمارية

ثمة علاقة وطيدة بين المعمار وسلطة الحكم. وهي علاقة تاريخية قديمة متجددة تنبعث بالعديد من الصور والأشكال، وهي علاقة براجماتية مصلحة تعمل باتجاهين. فالعمارة كفن تطبيقي وكمنحى رئيس من مناحي الحضارة والثقافة كانت من الفنون التي لازمت بلاط النفوذ وصناعة القرار بالدولة.

وبالرغم من أطروحات "العمارة البيئية" و"العمارة الفطرية دون معماريين" و"عمارة الفقراء" المثالية التي تنادي بأن العمارة ينبغي أن توظف لخدمة كافة فئات المجتمع وبوسائل متوفرة في البيئة وليست دخيلة عليها، إلا إن مثل هذه الأطروحات والمساجلات الفكرية النظرية منها تؤكد وبشكل غير مباشر حقيقة أن العمارة كانت تاريخياً ولا تزال "خبوية" تخدم فئات معينة بالمجتمع وتلتصق بالطبقة المتنفذة والبورجوازية وصناعة القرار. فالتاريخ يدل على أن غالبية مبدعي العمارة وحتى وقتنا الحاضر كان لهم حضور قوي وعلاقة مصلحة "ببلاط" الملوك والأمراء وكبار التجار والأثرياء.

وما نراه اليوم من مآثر عمرانية في مختلف الحضارات والثقافات إنما هي نتائج "تلاقح" على باب الأمراء ونظرة سياسية لطبقة الحكم في توظيف العمارة، والتي كان ينبغي أن تكون فناً إنسانياً مجرداً يعكس قيم المجتمعات، لتصبح بدلاً من ذلك وسيلة سياسية تكرر أيديولوجية "قهر" داخلية في استبداد الحكم أو خارجية في الاستعمار.

والأمثلة على ذلك تكاد لا تعد ولا تحصى، سواء تاريخياً أم في الوقت الحاضر. فمعمار الدولة العثمانية "سنان" كان مقرباً من بلاط سليم الأول وسليمان الأول وسليم الثاني ومراد الثالث. وبدائع العمارة العربية الإسلامية إنما هي عمارت تخص قصور الملوك والأمراء وكبار التجار والأثرياء، وكقصر الحمراء بالأندلس وقصر عمرة وقصور الأمويين والعباسيين، أو كبيت الكريديلية وبيت جمال الدين الذهبي والسحيمي في القاهرة الملوكية وهم من كبار التجار والأثرياء آنذاك.

ويكاد يخلو التاريخ من معمار كرس مهنته لخدمة العامة من الناس - ويكاد ذلك أن يشمل حسن فتحى صاحب أطروحة "العمارة للفقراء" فحسن فتحى يكتب عن معاناته مع دوائر الحكم وعقيلات أصحاب القرار في مصر في الأربعينيات في قبول أفكاره الحاملة، لتجده في أواخر حياته المهنية يصمم لكبار الأثرياء في دول الخليج العربي.

وتتعدد الأسماء بشكل لا يحصى في معماري العالم العربي المعاصر، بما لا يتيح لنا المقام تسميتهم، ممن لهم حضور دائم على أبواب الملوك والأمراء. وهذه العلاقة إنما هي علاقة نفعية مصلحة مادية محضة وإن تعددت الأطروحات الفكرية وتدنرت بأقنعة الفكر والثقافة والتراث والحدافة وغيرها من نبيل القيم والأفكار وساميتها.

وفي مقابل هذا السعي "الارتزاقى" من قبل المعمار، كانت هناك نظرة سياسية من قبل الحاكم ودوائر المشورة في بلاطه بنفعية استخدام المعمار في توظيفه كوسيلة لخدمة أهدافاً سياسية وعلى مستويات متعددة. فهناك مستوى في تكريس هيمنة الدولة على الفرد بتقديم مفهوم "مبتدع" في العمارة المسجدية "الصنمية" الضخمة والمضخمة التي تشعر الفرد بالضالة في مقابل سطوة الحكم، وهو مفهوم قديم تاريخياً عكسته معابد الفراعنة التي كرس "عمداً" سطوة رجال الدين والكهنة الذين كانت لهم حظوة وسطوة سياسية كطبقة مسيطرة وحاكمة. فكان مقياس الإنسان "المصغر" في هذه المعابد "الضخمة" يكافئ الواحد للمائة ويزيد.

وهناك نوع آخر من التوظيف السياسي يكمن في "قمع" الفكر المضاد للدولة من خلال المعمار بشكل مباشر أو غير مباشر. والقمع المباشر عكسه نابليون عقب الثورة الفرنسية بتوظيفه للمعمار "هاوسمان" لإعادة تخطيط مدينة باريس بحيث تكون الشوارع



د. وليد أحمد السيد

وهكذا فلم تكن العمارة علماً فنياً جميلاً بريئاً فحسب، بل كانت على الدوام أداة طبيعة على مرمى حجر من سياسات الطبقة الحاكمة والاستعمار بأشكاله المختلفة. وليس أدل على ذلك من العمارة الإسرائيلية التي تعكس سياسات إسرائيلية أبعد ما تكون عن العمارة بمفهومها الحضاري، فما هي إلا تنفيذ لسياسات ورؤى استيطانية تهويدية للأرض والشعب الفلسطيني. كيف ذلك؟

في كتاب (احتلال مدني - سياسات العمارة الإسرائيلية)، أو (A Civilian Occupation - The Politics of Israeli Architecture) والذي شارك كاتب هذه السطور في تقديمه على قناة الجزيرة الفضائية قبل سنوات، يروي مؤلفاه المعماريان الإسرائيليان (إيلان وايزمان) و(رافي سيفال) في فصول الكتاب المتعددة كيف أضحى المعمار الإسرائيلي أداة سياسية لتنفيذ سياسات استيطانية ومخططات صهيونية محضة.

والكتاب أصلاً أنجز على شكل معرض كان من المفترض فيه أن يمثل إسرائيل في المعرض الدولي للعمارة في برلين في ٢٠٠٢. وقد تم الطلب من مؤلفي الكتاب تمثيل العمارة الإسرائيلية في المعرض، ولكن - وبحسب تعبير المؤلف وايزمان - وجد أن المستوطنات في الضفة الغربية هي الشكل الأكثر تأثيراً في العمارة الإسرائيلية والتي يمكن أن تمثل بحق وصدق مظاهر العمارة في إسرائيل.

وهكذا تقدم المعماريان بمقترح يعكس المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية، والتي تمثل بصدق واقع العمارة وسياسات الاحتلال. لكن ذلك بالطبع لم يرق للسياسة الإسرائيلية التي تهدف لتوظيف العمارة كفن يعكس تراث إسرائيل "المسالمة" الذي ترجو تكريسه على أرض فلسطين بكل الوسائل ومنها العمارة. فالمستوطنات - وكما يتعرض لها الكتاب - تمثل أبشع أنواع انتهاكات حقوق الإنسان والتمييز العنصري واغتصاب الأرض وحقوق الشعب الفلسطيني، فأوعزت لجبهة المعماريين الإسرائيلية بوضع حظر على الكتاب وإلغاء المعرض والكتالوج الأولي. فقام الباحثان المعماريان

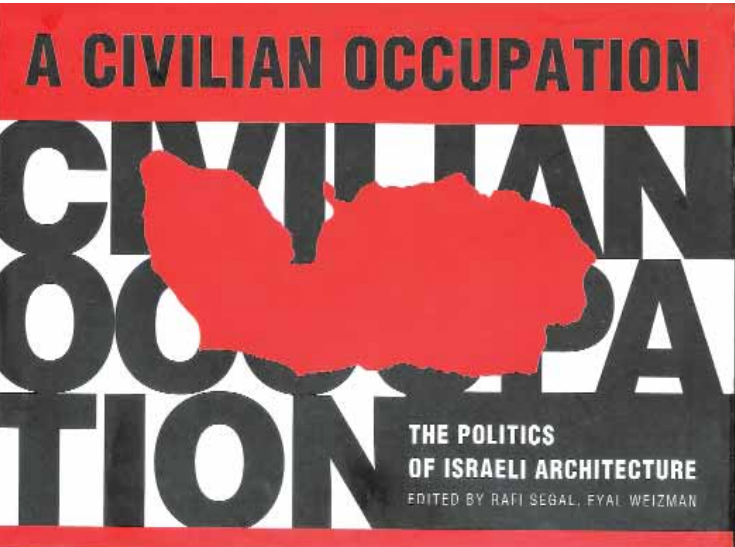
والإسرائيليان بنشر نتيجة بحثهما في هذا الكتاب الذي سُحبت النسخ التي طُبعت منه وتم التخلص منها. ويقدم "إيلان وايزمان" الكتاب على أنه يعيد تعريف العمارة الإسرائيلية التي لما كرسه وسائل التعليم الإسرائيلية التي غرست في النشء الإسرائيلي أفكاراً منها أن العمارة الإسرائيلية هي الجانب الإيجابي للصهيونية. بيد أن الكاتب الإسرائيلي يدحض هذه الأفكار التي نشأت عليها أجيال المعماريين الإسرائيليين ويثبت حقيقة أن للعمارة الإسرائيلية وجهاً آخر وتاريخاً مفعزاً ينطوي على انتهاك صارخ لحقوق الإنسان، وتحوي سياسات يعتبرها الكاتب الإسرائيلي المنصف غير أخلاقية.

ومن الأمثلة العديدة التي يستعرضها الكتاب في إطار السياسات الإسرائيلية الاستيطانية التي تستخدم العمارة كوسيلة فكرية "السور والبرج". فمستوطنات السور والبرج هي في الحقيقة مستوطنات تعاونية، أي كيبوتسات، تسويت في تهجير الفلسطينيين أهل هذه الأراضي وأصحابها.

وفكرة السور والبرج هي فكرة استيطانية تشبه بناء قلعة عسكرية بإقامة سور للحماية وبرج لمراقبة محيطها. كما أن سلاسل الكيبوتسات كانت تبني على شكل شبكات ومجموعات والأبراج فيها كانت تستخدم كألية اتصالات يتم من خلالها إرسال أكثر من إشارة للمستوطنات الأخرى، وكانت المستوطنات تعمل معا كمجموعة شبكية متواصلة محصنة، بهدف زيادة الحدود الإسرائيلية وتقليص ممتلكات الفلسطينيين.

وعملت فكرة السور والبرج على زيادة رقعة المستوطنات - في وجود هلامية ترسيم الحدود بين إسرائيل والكيان الفلسطيني - وإلى أن تم ترسيم الحدود لاحقاً كانت المستوطنات هي المرجع الثابت والتي كرس وضع اليد على أكبر ما يمكن من مساحة أراضي الفلسطينيين. وهكذا كانت المستوطنات تقوم بوظيفتين في آن معاً، وظيفة مدنية وثانية عسكرية استيطانية لتنفيذ رؤى وسياسات مطابخ صناعة القرار الإسرائيلي.

أما المثال الآخر الذي تمخضت عنه العقلية الإسرائيلية الاستيطانية لحماية المستوطنات التي أقيمت عنوة على



غلاف كتاب (احتلال مدني - سياسات العمارة الإسرائيلية)

■ ما نراه اليوم من مآثر عمرانية في مختلف الحضارات والثقافات إنما هي نتائج «تلاقح»

تزلف المعمار واستفاعة على باب الأمراء

■ العمارة الإسرائيلية تعكس سياسات أبعد ما تكون عن مفهومها الحضاري، وما هي إلا تنفيذ لسياسات ورؤى استيطانية تهويدية للأرض والشعب الفلسطيني

أراضي الفلسطينيين من جهة، ولقمص أكبر مساحة ممكنة مما تبقى من أراضي الفلسطينيين فهو الحائط أو الجدار. والجدار هو فكرة استعمارية قديمة منذ زمن الرومان و«هدريان» - ويكرس استمرار المشروع الاستيطاني. والحائط هو خلاصة مشروع (شارون) الاستراتيجي الاستيطاني لإحكام السيطرة المطلقة على الضفة الغربية، وقطع الطريق على قيام أي كيان فلسطيني قادم.

والحائط يخدم السياسة الإسرائيلية بتقسيم الأرض الفلسطينية إلى أجزاء متناثرة، وهو - بحسب تعبير وايزمان - "حالة" أكثر منه جداراً خطياً واحداً، فهناك حواجز وأسيجة وخنادق ومصعدات أسمنتية موزعة في طول وعرض الضفة الغربية، ولا ينظر إليه على أنه حد خطي يفصل بين جهة اليمين وجهة اليسار فقط، بل هو واقع يخلق أجزاءً مبغرة ومفتتة.

والخلاصة الأساسية التي نلتقي بها مع نتيجة كتاب وايزمان هي أن المعماريين مسؤولون عن الواقع الذي يخلقونه على الأرض، وإذا ظن البعض أن عمل المعماريين ينحصر في إطار المجالات الأكاديمية المعمارية والخرائط الأدبية، فهذا خطأ بالغ. فخطر العمارة حين يقترن بالسياسة والاستعمار ومنهجياته يصبح بأثر الدبابة على الواقع ويزيد. فالمعمار قد يكرس انتهاكات لحقوق الإنسان وتكرس مصالح سياسية "قتوية" أو مذهبية أو طائفية على حساب آخرين.

وفي حال الصراعات الحضارية والثقافية يصبح خطر طمس الهوية وضياح الحقوق الشرعية - كما هو الحال في فلسطين - خطراً داهماً ملحا، قد تعجز قرون من العمل المضني عن إعادة إثبات الحقائق التي طمسها أيدي المعمار التي تواطأت مع السياسي والمستعمر.

وتظل المسؤولية الأخلاقية والمهنية منوطة برقبة المعمار لتحمل مسؤوليته الحضارية والثقافية بعيداً عن أبواب الملوك وصنناع القرار والسياسة ومنهجيات ورؤى الاستعمار.

«أستاذ في العمارة ومدير مركز دراسات العمارة الإسلامية بلندن sayedw03@yahoo.co.uk



تخطيط مدينة باريس الشعاعي لخدمة مصالح قمع الثورة بنصب المدافع في الميدان لمواجهة شوارع البوليفارد.